مكتبة
Telegram Network
2019

كارلوس زافون

لعبة الملاك

ترجمة

معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل

روايـة

كارلوس زافون
مكتبة
Telegram Network
2019
لعبة الملاك
ترجمة
معاوية عبد المجيد
منشورات الجمل
رواية

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

« لعبة الملاك»

لـ(Carlos Ruiz Zafón)

الي صيغة نصية:

(أعضاء قناة مكتبة نيتورك)

TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

ترتيب حسب ارقام الملفات

من السعودية

«صالح الضويحي»

من سوريا

«محمد المقداد»

من مصر

«Mohammad Maher»

«تميم التميمي»

من الكويت

«منصور التميمي»

«محمد غزلان»

«Meliorist»

من مصر

«تيسير»

من السعودية

«نجاح السبيعي»

من لبنان

«أحمد لحاف»

«حسين احمد»

من السعودية

«طارق دردوري»

من لبنان
«حسن العاملي»
من السعودية
«غدو»

قام بجهد استثنائي حتى يرى هذا الكتاب النور كلٌ من:

«صالح الضويحي»

«محمد المقداد»

«Mohammad Maher»

«تميم التميمي»

كارلوس زافون: لعبة الملاك،
ترجمة: معاوية عبد المجيد
الطبعة الأولى 2017
منشورات الجمل، ببغداد - بيروت

مقبرة الكتب المنسيّة

يشكل هذا الكتاب جزءًا من سلسلةٍ روائيّة، ترتكز على «مقبرة الكتب المنسية» كثيمةٍ أدبيّة أساسيّة: ترتبط هذه الروايات بعضها ببعض عبْر الشخصيّات والمواضيع المتعددة؛ إلاّ أنّ كلّ رواية منها مستقلّة عن الأخرى ومكتفية بذاتها.

لذا ننوّه بإمكانيّة قراءة روايات السلسلة بغضّ النظر عن تسلسلها، ما يسمح للقارئ باكتشاف هذه المتاهة وولوج ألغازها من أبواب ومسالك مختلفة تقوده عمومًا إلى قلب الحكاية.

إلى ماريكارمن «أُمَّةُ في شخصين»

الفصل الأول مدينة الملاعين

الكاتبُ لا ينسى أوّل مرَّةٍ يحصل فيها على نقودٍ أو ثناءٍ مقابل قصّة ألّفها. لا ينسى أبدًا أوّل مرَّةٍ يشعر فيها بسمّ الغرور العذب يسري في دمائه؛ فيحسّب أنّه قادرُ على إخفاء انعدام موهبته عن الجميع، وأنّ حلمَه الأدبيّ سيؤمّن له سقفًا فوق رأسه، وطبقًا ساخنًا في آخر النهار، وأشدّ ما يرغب فيه على الإطلاق: أن يرى اسمه مطبوعًا على غلافٍ ورقيّ بائس، سيعمّر أكثر منه بلا شكّ. الكاتب محكومُ بعدم نسيان تلك اللحظة، لأنها تتلاشى في أوانها ويصبح لروحه ثمنُ ما.

بالنسبة إليّ، كانت «المرّة الأولى» في يوم بعيد من شهر ديسمبر عام 1917. كان عمري سبعة عشر عامًا وأعمل في «صوت الصناعة»، وهي جريدةُ متهالكة يقع مقرّها في مبنىً مليء بالسراديب إذ كان من قبل مصنعًا للأسيد الكبريتيّ؛ وما زال ذلك البخار يفوح من جدرانه حتى أفسد الأثاث والثياب والأرواح، بل وحتى أسفل الأحذية. كان مقر الجريدة ينهض خلف مقبرة بويبلو نويفو، التي تبدو كغابةٍ من الملائكة والصلبان؛ حتّى إنّ واجهة المقرّ، إذا نظرتَ إليها من مسافة بعيدة، اختلطت عليك بشواهد القبور العائليّة المنثورة على امتداد أفقٍ تتغلغل فيه مئات المداخن والأبنية التي تتكاثف في منظرٍ لغروبٍ أبديٍّ، أسود وقرمزيّ، فوق برشلونة.

في المساء الذي تغيّرت فيه حياتي، استدعاني مدير التحرير، الدون ماسيليو موراغاس، قُبيل الإغلاق، إلى مكتبه الشبيه بقبرٍ مظلم، الواقع في آخر المبنى، حيث يدخّن لفائف السيجار بشراهة. كان للدون ماسيليو مظهرُ جارح وشاربُ يانع؛ يفعل ما يطيب له، ويتبنّى نظريةً تفترض أنّ الاستخدام المفرط للظروف والصفات أمرُ يناسب المنحرفين جنسيًا أو مَن يشكو نقصًا في الفيتامينات. إن صادف محرَّرا ميَّالا إلى النثر المزوّق، كلّفه بإعداد زاوية الوفيّات لثلاثة أسابيع. وإن عادت إليه هذه الظاهرة، بعد عملية التطهير ، أرسله الدون ماسيليو إلى صفحات الأعمال المنزليّة ليبقى فيها إلى الأبد. كان جميع الموظّفين يهابون جانبه وهو على علمٍ بذلك.

- هل استدعيتني يا دون ماسيليو؟ - أطللتُ برأسي على استحياء.

نظر إليّ بعينين مواربتين. دخلتُ إلى مكتبه الذي تنبعث منه رائحة العَرَق قبل التبغ. تجاهل الدون ماسيليو حضوري وتابع مراجعة إحدى المقالات التي كانت على منضدته، وبيده قلم رصاص أحمر. وفي غضون دقيقتين، ملأ النصّ بإشارات الحذف والتصحيح، وهو يهمهم بألفاظ نابية كأنّي لست موجودًا أمامه. وحين احترتُ بما ينبغي فعله.

لاحظتُ وجود كرسيّ مسنود إلى الحائط فجلست عليه.

- من سمح لك بالجلوس؟ - غمغم الدون ماسيليو دون أن تحيد أنظاره عن النصّ.

فانتفضتُ واقفًا وحبستُ أنفاسي. تنهّد مدير التحرير، وسقط القلم الأحمر من يده، وعدّل جلسته على المقعد كي يفحصني كما لو كنتُ أداةً لا فائدة تُرجى من ورائها.

- قالوا لي إنّك تكتب يا مارتين.

مضغتُ ريقًا، وحين فتحتُ فمي خرج صوتي هشًّا ومضحكًا.

- بعض الشيء، حسنًا، لا أعرف، أقصد أنّي، أجل أنا أكتب...

- إنّي واثقٌ من أنّك تكتب أفضل ممّا تتكلّم. وماذا تكتب، إن سمحتَ لي بالسؤال؟

- قصص بوليسيّة. أعني...

- وصلت الفكرة.

رمقني الدون □اسيليو بنظرةٍ فتّاكة. ولو قلت له إنّي أصنّع تماثيل صغيرة من الروث الطريّ، تجسّد ولادة المسيح، لاستطعتُ أنّ أولّد فيه ضعف ذلك الحماس. تنهّد مجددًا وعبّر عن عدم اهتمامه.

- □يذال يقول إنك شاب واعدُ ولا بأس بموهبتك. بالطبع، لا ينبغي أنّ تبذل جهدا كبيرًا في ظلّ المنافسة المتدنيّة في هذه الأنحاء. لكنّ رأي □يذال محلّ ثقة.

كان بيدرو □يذال أبرز قلم في «صوت الصناعة» ؛ وكانت زاويته الأسبوعيّة، التي تعلّق على الحوادث، هي الوحيدة التي تستحقّ عناء القراءة في الصحيفة كلّها. مؤلّف لعدد من روايات المغامرة التي حصدت شعبيةً متواضعة، وترتكز على حياة المجرمين من حيّ الرا□ال -الضاحية الخامسة- وقد نسجوا مكائد غرامية لسيِّدات من الطبقة العليا. كان رجلًا في غاية الأناقة، لا يرتدي إلا البزّات الرسميّة الحريريّة وأحذية الموكاسيني الإيطاليّة الفاخرة. له مظهرُ وتصرُّفات توحي بأنه ممثّل استعر اضيّ، وشعره الأشقر دائم التصفيف واللمعان، وشاربه ناعمُ فوق ابتسامته السخيّة التي تدلّ على أنّه ميسور الحال، يعيش الحياة كما ينبغي. تنحدر سلالته من الهنود الحُمر ، الذين حالفهم الحظّ في الأمريكيّتين بتجارة السكّر؛ وإبّان عودتهم، انقضّوا بأسنانهم على
الكعكة الشهيّة: مشروع توصيل الكهرباء إلى المدينة. كان والده عرّاب الأسرة، وأحد أبرز أصحاب الأسهم في الجريدة، ولهذا اعتاد الدون بيدرو استخدام مقرّها كصالة ألعابٍ يقضي فيها على الملل الناجم عن عدم اضطراره للعمل ولو ليوم واحدٍ في حياته كلّها. لم يكن يهتمّ بأمر الجريدة التي تخسر يوميًا بقدْر كميّة الوقود الذي ينفَقه على سياراته الحديثة التي تجول في برشلونة. إذ كان آل □يذال، وقد تضخّمت ألقابهم النبيلة حينها، يسعون إلى بسط نفوذهم على المصارف والأراضي الواسعة في منطقة إينسانش، ليصبحوا أشبه بأسياد إمارة صغيرة.

وكان بيدرو أوّل من قرأ مسوّداتي التي كتبتها في طفولتي حين كنت أعمل في حمل القهوة والسجائر إلى المحررين في الجريدة. ولطالما وجد وقتًا يفرّغه لي ولقراءة نصوصي ومنحي بعض النصائح المفيدة.

وشيئًا فشيئًا، عيّنني مساعِدًا لديه وسمح لي بتنضيد نصوصه على الآلة الكاتبة. وهو الذي أبدى استعداده لإرشاد خطواتي الأولى، أنّ أردتُ أنّ أجرّب حظّي في عالم الأدب؛ فوفى بوعده وها قد رماني بين مخالب الدون □اسيليو، العقل المدبّر في الصحيفة.

- □يذال عاطفيٌّ ما يزال يؤمن بخرافات مناقضة كليًّا لثقافتنا الإسبانية، كإحالة الأمور لأهل الاختصاص أو منح الفرص لمن يستحقّها وليس لمن يأتي دوره في المحسوبيّات. يحقّ له أنّ يتصرّف كشاعر يهيم في أرجاء الأرض طالما أنّه مُتْرَفُ حتّى البذخ. لو كان عندي واحد بالمائة مما يتبقّى لديه من نقود، لانكببتُ على كتابة الأشعار، ولجعلتُ العصافيرَ تأكل من يدي، وهي مسحورة من طيبتي وفتنتي.

- السيد □يذال رجلُ عظيم- احتججتُ.

- بل أكثر من ذلك. أنّه قدّيس لأنّه، ورغم وجهك الذي يعبّر عن
أقسى مظاهر المجاعة، ما لبث يصدّع رأسي منذ أسابيع وهو يكرّر على مسامعي: يا لطفل الجريدة المدلل كم هو نشيط وموهوب. أنّه يعلم أنّي أتناسى أحيانًا، لكنّه وعدني بهديّة فاخرة إذا ما سمحتُ لك بالفرصة، علبة من سيجار الكوييبا. وإنّ كلام □يذال منزُّل بالنسبة إليّ، كما لو هبط موسى من أعلى الجبل، حاملًا اللوح الحجري بين يديه، والحقيقة الساطعة تلوح فوق رأسه. لذا، ختامًا ولأنّنا في موسم أعياد الميلاد، وكي يكفّ صديقك عن الإلحاح، سأمنحك فرصة البداية كالأبطال: في وجه الريح والأمواج العاتية.

شكرًا جزيلاً يا دون □اسيليو. أعدك بأنّك لن تندم على...

لا تندفعْ يا فتى. دعني أمتحنك. ما رأيك بالاستخدام المفرط، وغير المدروس، للصفات والظروف؟

-أنّه عارُ لابدّ أنّ يعاقِب عليه القانونُ الجزائيّ- أجبتُ بقناعة المناضل التائب.

هزّ الدون □اسيليو رأسه مستحسنًا إجابتي.

- حسنًا يا مارتين، الأولويات عندك في محلّها. في مهنة الصحافة، يصمد مَن لديه أولويّات وليس مبادئ. سأطلعك على الخطة. اجلس واصغ جيدًا لأني لن أعيد كلامي مرّتين.

كانت الخطة على الشكل التالي: نظرًا إلى أسباب لا يرى الدون □اسيليو ضرورة للتعمق فيها، فإنّ الصفحة الخلفيّة لعدد يوم الأحد كانت عرضةً للفراغ في اللحظة الأخيرة. وقد جرت العادة أنّ تُختم الصحيفة بقصّة أو تقرير عن رحلة ما. وكان من المفترض أنّ ينشروا قصة محشوّة بالقيم الوطنيّة والطابع الغنائيّ المبتذل، تتحدّث عن مساعي المغاوير الاسبان لإنقاذ الديانة المسيحيّة، بين شيء وآخر، و كل ما هو جديرٌ
بالبقاء تحت السماء، بدءاً من الأرض المقدسة وانتهاءً بدلتا يوبريغات.

ومع الأسف لم يصل النصّ في موعده؛ أو ربّما لم يشأ الدون □اسيليو نشره، بحسب تكهناتي. ولم يعثروا على بدائل، قبل ستّ ساعات من الإغلاق، تحلّ مكان القصّة، سوى إعلانٍ على صفحة كاملة لزيّ الكورسيه الذي يضمن للنساء أردافًا مثالية ويخفي بدانتهنّ. ولمواجهة هذا المأزق، ارتأت الإدارة أنّه لا بدّ من التماس المميّزين واستنفار المواهب الأدبية المخبّأة في الصحيفة، بهدف ملء الفراغ ونشر مقالٍ، من أربعة أعمدة، ذي طابع إنسانيّ يؤمّن التسلية لجمهورنا الودود والمحدود. وكانت لائحة المواهب المختارة مكوّنة من عشرة أسماء ولم يكن اسمي من بينها طبعًا.

- مارتين يا صديقي. تآمرت علينا الظروف ولم نجد أيًّا من فرسان الجريدة على مسافة قريبة منّا بوسعه أنّ ينجز شيئًا خلال هذا الهامش الضيّق من الوقت. وأمام هذه المصيبة الوشيكة، قررتُ أنّ أمنحك الشرف.

- ثق بي يا سيّدي.

- أنا أثق بخمس صفحات مكوّنة من فراغات مزدوجة خلال ستّ ساعات يا سيد إدغار آلان بو. أريد قصة وليس خطابًا. لو أردتُ عظة ما، لذهبتُ إلى خطبة منتصف الليل في الكنيسة. آتني بقصةٍ لم أقرأها من قبل، وإن كنتُ قد قرأتُ مثلها، فأريدها مكتوبة ومسرودة بشكلٍ لا يجعلني أفطن إلى ذلك.

كنت على وشك الخروج فإذا به ينهض ويستدير من خلف منضدته ليحطّ يده، الضخمة كالسندان، على كتفي. وحينها فقط، اكتشفتُ أنّ عينيه تبتسمان، إذ رأيتهما عن قرب.

- إذا كانت القصة موفَّقة دفعتُ لك مقابلها عشرة بيسيتا. وإذا كانت أكثر من موفَّقة وأعجبت القرّاء، نشرتُ لك قصصًا أخرى.

- هل من توصية معيّنة يا دون □اسيليو؟ - سألت.

- أجل، لا تخيّبْ آمالي.

قضُّيت الستّ ساعات اللاحقة في حالة نشوة صوفيّة. هيَأتُ نفسي على المنضدة في قلب القاعة المركزية، المنضدة المخصّصة لـ□يذال عندما يطيب له المجيء إلى المكتب لقضاء الوقت. كانت القاعة مقفرة وغارقة في ظلام منسوج من دخان عشرات آلاف السجائر. أغمضتُ عينيّ لحظةً واستحضرتُ صورة ما: سحبُ سوداءُ متلبّدة، تهبط على المدينة كالأمطار ، ورجلُ يسير باحثًا عن ظلالٍ خفيّة ويداه ملطّختان بالدماء، وثمّة سرُّ ما يلوح في نظراته. لم أكن أعرف من يكون ومن أين يأتي هارباً، لكنّه بات صديقي المفضّل خلال الستّ الساعات اللاحقة.

أدخلتُ ورقة في الاسطوانة، وشرعتُ أعصر أساريري دون أنّ أسمح لنفسي ولو بهدنة قصيرة. صارعتُ الكلمات والجُمل والاستعارات والتعابير، حرفًا حرفًا، كأنّها آخر ما أنشد كتابته. كتبتُ وكتبتُ سطورًا كما لو كانت تمضي من عمري، ثم كتبتها مجددًا. كان صاحبي الوحيد صدى الآلة الكاتبة التي تطقطق دون كللٍ أو ملل في القاعة المظلمة، إضافةً إلى دقّات ساعة الحائط الضخمة التي تبتلع الدقائق المتبقيّة حتى بزوغ الفجر.

قبل السادسة صباحًا بقليل، سحبتُ الورقة الأخيرة من الاسطوانة والتقطتُ أنفاسي المنهكة، وشعرتُ بأنّ رأسي بات عشًا للدبابير.

سمعتُ خطى الدون □اسيليو المتثاقلة تتقدم ببطء، بعد أنّ اصطادته اليقظة من نومه القرير والمنتظم، وكان يقترب بحذر. أحذتُ الأوراق

وأعطيتها له دون أنّ أجرأ على النظر إلى عينيه. جلس الدون □اسيليو إلى المنضدة المجاورة وأشعل القنديل. وانزلقت عيناه على طول النصّ وعرضه دون أنّ تدليا بأيّ انطباع. ثم وضع السيجارة لحظة على حافة المنضدة، ونظر إليّ وهو يقرأ السطر الأول بصوتٍ جهير.

«يهبط الليل على المدينة، وتفوح رائحةُ البارود في الشوارع، كأنها أنفاس لعنةٍ ما.» نظر إليّ بعينين مواربتين فاختبأتُ خلف ابتسامةٍ لا تظهر أيّ سن من أسناني. ودون أنّ يضيف شيئًا نهض وانطلق، وقصّتي أسيرةُ بين يديه.

رأيته يبتعد نحو مكتبه ويغلق الباب وراه. بقيتُ متسمِّرًا ومترددًا فيما ينبغي فعله: هل ألوذ بالفرار أم أنتظر الحكم بالإعدام. بعد عشر دقائق بدت لي عشرة أعوام طويلة، فُتح باب المكتب ودوّى صوته في مقر الصحيفة كله.

- هلا أتيت يا مارتين؟

جرجرتُ نفسي ببطء عسير، مقلِّصا الخطوة سنتمترًا قياسًا بسابقتها، حتى لم يعد أمامي خيار سوى الوقوف على عتبة مكتبه ورفع أبصاري.

كان الدون □اسيليو ينظر إليّ بفتور، وهو يمسك قلمه الأحمر المخيف.

حاولتُ أنّ أمضغ ريقًا رغم جفاف فمي. جمع الدون □اسيليو الأوراق وأعادها إليّ. فأخذتها واستدرتُ نحو الباب بأقصى سرعة ممكنة، وأنا أواسي نفسي قائلاً أنّ هنالك فرصة دومًا للعمل كملمّع أحذية مبتدئ في بهو فندق كولون.

- خذ الحكاية إلى المطبعة وضعها في الآلة الطابعة فورًا- قال صوته خلف ظهري.

فاستدرتُ وأنا أشعر بأنّي موضع مزاحٍ ثقيل. فتح الدون □اسيليو الدُرج، وعدّ عشرة بيسيتا ووضعها فوق المنضدة.

- هذه النقود لك. أقترح عليك بأن تشتري بزّة أخرى، لأنّي أراك منذ أربعة أعوام بالبزّة نفسها وهي أكبر بستّ مرَّاتٍ من مقاسك. أنّ أردت، اذهب إلى ورشة الخيّاط بنطليوني وقل له إنّك جئت من طرفي.

سيكرمك.

- شكرًا جزيلًا يا دون □اسيليو. سأفعل كما أشرتَ.

- وحضّرْ لي قصّة أخرى من المستوى ذاته. هذه المرّة سأمنحك أسبوعًا كاملًا. شرط ألا تتقاعس. وحبّذا أنّ يكون في القصّة القادمة أقلّ عدد من الموتى، فالقرّاء في هذه الأيام يحبّون النهاية السعيدة حيث تنتصر عظمة النفس الإنسانية وإلى آخره من هذه الترّهات.

- حاضر يا سيّدي.

أومأ مدير التحرير برأسه ثم مدّ يده فصافحتُه.

- بالتوفيق يا مارتين. الاثنين القادم، أريد أنّ أراك على منضدة خونثيدا، بإمكانك أنّ تعتبرها لك منذ الآن. سأعيّنك في صفحة الحوادث.

- لن أخيّب آمالك يا دون □اسيليو.

- لن تخيّب آمالي، لكنّك ستتركني عاجلًا أم آجلًا. وستحسن صنعًا، لأنّك لست صحفيًّا ولن تصبح صحفيًّ أبدًا. إلا أنّك لست مؤلّفا بارعًا للقصص البوليسية بعد، حتى لو كنت تحسّب نفسك كذلك. ابق عندنا قليلًا من الوقت كي نعلّمك بعض الأمور التي لا تفسد صلاحيّتها أبدًا.

في تلك اللحظة، أخفضتُ بصري، واجتاحني شعورُ كبيرُ بالامتنان
حتى رغبتُ أنّ أعانق ذلك الوغد. استعاد الدون □اسيليو قناعه الصارم ورماني بنظرة فولاذية مشيرًا إلى الباب.

- لا أريد مَشاهدَ عاطفية هنا من فضلك. اغلق الباب ما أنّ تخرج.

أعياد ميلاد سعيدة!

- أعياد ميلاد سعيدة!

يوم الاثنين اللاحق، حين وصلتُ إلى المقرّ ، وأنا أستعدّ للجلوس خلف منضدتي الشخصيّة للمرّة الأولى، وجدتُ ظرفًا ورقيًّا معقودًا بالشرائط. واسمي منقوشٌ عليه بحروف الآلة الكاتبة التي ضربتُ عليها سنينًا. فتحتُ الظرف. ووجدتُ الصفحة الخلفيّة من عدد يوم الأحد تزهو بقصّتي، ورسالة تقول: «هذه ليست إلا البداية. بعد عشر سنوات سأكون أنا التلميذ وأنت المعلّم. صديقك وزميلك بيدرو □يذال.»
2 اجتازت انطلاقتي الأدبية الاختبارَ الأول، ووفى الدون □اسيليو بوعده إذ سمح لي بنشر قصتّين من الأجواء ذاتها تقريبًا. وسرعان ما قرَّرَت الإدارة أنّ تخصّص لمسيرتي المباغتة موعدًا أسبوعيّا، شرط أنّ أستمرّ بمتابعة التزاماتي في الصحيفة بدقّة وبالأجر نفسه. وهكذا كنت أقضي الأيام، وقد أجهز عليّ سمُّ الغرور والمثابرة، بمراجعة نصوص زملائي وبتحريرٍ سريع لصفحة الجرائم التي لا مثيل لفظاعتها، كي أسهر الليالي وحيدًا في قاعة التحرير وأكتبَ قصّة مسلسلة منمّقة بأسلوبٍ ميلودراميّ كانت تداعب مخيّلتي منذ زمن. كنت أستوحي لقصّتي تلك، التي عنونتها بـ «ألغاز برشلونة» ، من أسلوب دوما وبرام ستوكر، هكذا بلا حياء، مرورًا بسوي وفيبال. لم أكن أنام أكثر من ثلاث ساعات، حتى باتت ملامحي لرجلٍ يقضي أيامه في نعشٍ ما. وكان □يذال يرى أنّي أتلف دماغي وأسعى لإقامة جنازتي قبل العشرين عامًا، وهو لم يكن يعرف ذلك النوع من الجوع، الذي لا صلة له بالمعدة، كيف ينهش صاحبه من الداخل. أمّا الدون □اسيليو، فلم يكن مستاءً من عملي الدؤوب، بل كانت له مآخذ أخرى. كان ينشر مقالاتي على مضض، منزعجًا مما

يسمّيه إسْرافًا في الحالة المَرَضيّة ونذير شؤم على موهبتي التي كرُّستها في خدمة المواضيع والأحداث الخالية من أيّ نكهة أدبيّة.

وسرعان ما بشّرت «ألغاز برشلونة» ببزوغ نجم صغيرٍ في عالم الروايات المسلسلة: بطلة القصة التي كنت أتخيّلها كما يتخيل أيُّ شاب، في السّابعة عشر من عمره، «المرأة الفتّانة». كلويه بيرمانير، سيّدة الظلام في مملكة الأرواح الشريرة. حادّة الذكاء والطباع وغريبة الأطوار، ترتدي دومًا ثيابًا نسائيّة أنيقة تناسب صيحة الأزياء المعاصرة، وتقوم بواجباتها كعشيقة بالتاسار موريل وذراعه الأيمن، وهو البطل الغامض والعقل المدبّر للعالم السفليّ، يعيش في قبوٍ مليء بالرجال الآليين ورفات مَن قضوا بأبشع وسائل الموت، وكان مدخله السرّيّ نفقًا بين الدهاليز المحفورة تحت مدافن الحيّ القوطيّ. كانت كلويه تفضّل وسيلة لقتل ضحاياها، تكمن في إغوائهم برقصةٍ منوّمة، تنزع ثيابها ثم تقبّلهم بشفتيها المطليّتين بالسّم الأحمر الذي يشلّ كلّ أعضاء الجسد، وتتركهم يموتون بصمت، خنقًا، بينما تنظر إلى عيونهم بعد أنّ شربت الخلاصة المضادّة للتسمّم، المحلولة في شمبانيا الدوم بيرينون الملكيّة.

وكان لكليهما غاية مشرّفة: السعي إلى قتل الحثالة فقط، وتطهير العالم من المتغطرسين والأنذال والمنافقين والمتزمّتين والأغبياء العقائديّين وجميع الحمقى الذين يزيدون من بؤس الآخرين، ويخفون جشعهم وخسّتهم خلف الحفاظ على الشعارات والأديان واللغات والأعراق والأباطيل الأخرى. كنت أراهما بطلين خارجين عن المألوف، ككلّ الأبطال الحقيقيين. أمّا الدون □اسيليو، الذي توقّفت أذواقه الأدبية عند العصر الذهبيّ للشعر الإسبانيّ، كان يراهما في غاية السخف. لكنّه تغاضى عن غرابة أطواري رغمًا عنه، نظرًا إلى المودّة التي خصّني بها، وإلى إعجاب الجمهور بحكاياتي. وكان ينسب غرابتي إلى عنفوان الشباب المتّقدّ.

- أنت تعتني بالحرفة أكثر من الذوق يا مارتين. أنّ أعراض المرض
الذي يكاد يقتلك لها اسم وهو «غراند غوينيول» (1)، وهو في السرد يشبه العار الذي يسبّبه داء الزُّهري. لعلّك بارِعٌ في نسج الحبكة، لكنّها سرعان ما تتهاوى وتتبعثر. عليك أنّ تقرأ الأدباء الكبار، الدون بينيتو بيريز غالدوس على الأقلّ، كي ترفع من مستوى تطلّعاتك الأدبية.

-لكنّ قصصي تعجب القرّاء- كنت أجادله.

هذا ليس بفضل جدارتك، بل لأنّ منافسيك عاجزون وجهلة لدرجة أنّ يصاب الحمار بانفصام الشخصية إذا قرأ فقرة واحدة من نصوصهم.

سنرى أنّ كنت ستنضج يوما ما، لتسقط كالفاكهة المحرّمة من على الشجرة.

كنت أهزّ رأسي متظاهرًا بتأنيب الضمير، لكنّي أتأمّل في سرّي تلك الكلمات المحظورة، «غراند غوينيول»، وأقول لنفسي أنّ أي قضيّة، مهما كانت باطلة، تبحث دومًا عن بطلٍ يدافع عن شرفها.

بدأتُ أشعر أنّي أكثر البشر حظًا حين اكتشفتُ أنّ الغيظ أصاب بعض زملائي؛ فربيب الجريدة المدلل، وجالب الحظ رسميًا، استهلّ خطواته الأولى في عالم الأدب، بينما تحتضر طموحاتهم الأدبيّة منذ سنوات في حَيرةٍ رماديّة بائسة. ازداد الأمر سوءًا حين تهافت قرّاء الصحيفة على قصصي المتواضعة وأعجبوا بها أكثر من أيّ نصّ منشور في الأعوام العشرين الأخيرة. وفي غضون أسابيع قليلة، رأيتُ أنّ كرامتهم الجريحة تحوّلهم إلى قضاة ظالمين، وتدفعهم إلى عدم مبادلتي التحيّة والكلام، وتحرّضهم على اغتيابي وازدرائي تعويضًا عن انعدام مواهبهم، وهم الذين لطالما اعتبرتُهم عائلتي الوحيدة. عزوا حظوظي المبهمة إلى توصيات بيدرو □يذال، وإلى جهل قرّائنا الأغبياء، وإلى المقولة الشائعة على المستوى الوطني، تلك التي تؤكد بأنّ النجاح في أيّ مجال مهنيّ برهانُ لا ريب فيه عن العجز وعدم الجدارة.

وإزاء هذه التداعيات المؤسفة وغير المتوقعة، كان □يذال يحاول أنّ يشدّ من أزري، لكنّي بدأت أشكّ بأنّي سأواصل العمل في الجريدة.

- أنّ الحسد دين الفاشلين. يواسيهم إثر الحيرة التي تجتاحهم. يُفسِد سرائرهم، ويسمح لهم بتبرير خسّتهم حتى يحسّبوها مزيّة. يظنون أنّ أبواب السماء لا تُفتح سوى أمام الأدنياء أمثالهم، أولئك الذين يعيشون الحياة دون أنّ يتركوا أثرًا إلا لقذارة محاولاتهم في تثبيط همم الآخرين وتنحية -أو محو- مَن كان وجوده سببًا في كشف أرواحهم المريضة وعقولهم الفارغة وقلوبهم المتحجّرة. طوبى لمن نبح الحمقى خلف ظهره وما انساق إلى فظاظتهم!

- آمين - يردّ عليه الدون □اسيليو - لو لم تولد وفي فمك ملعقة من ذهب لكان من الأجدر بك أنّ تعمل راهبًا. أو قائد ثورة. بخطبة كهذه، يمكنك الإطاحة بأسقف دفعة واحدة.

- اسخرا منّي -أتدخّل محتجًّا- إنّهم لا يتمنّون رؤية وجهي حتى لو كان مرسومًا.

إضافة إلى العداوات التي منيتُ بها بسبب مثابرتي، كانت هنالك الحقيقة المرّة: فرغم أنّي أوشكت أنّ أصبح أديبًا شعبيًّا، كان راتبي لا يكاد يكفيني للبقاء على قيد الحياة، وشراء كتبٍ أكثر من تلك التي يسمح لي الوقت بقراءتها، وإيجار غرفة صغيرة في نزل مدفون في زقاق قريب من شارع برنسيسا تديره امرأة غاليزية مؤمنة تدعى بالسيدة كارمن.

كانت السيدة كارمن تدعّي العفّة، وتغيّر الأغطية مرّة في الشهر؛ ولهذا السبب كان على النزلاء أنّ يُقلّلوا محاولات الاستمناء والاستلقاء على السرير بثياب متّسخة. ما من ضرورة لمنع النسا من دخول الغرف، إذ لم تكن أيّ امرأة -في برشلونة كلّها- لترغم نفسها على دخول ذلك النزل القميء حتى لو هُدِّدتْ بالقتل. تعلمتُ هناك أنّ كلّ شيء في الحياة يتعرّض للنسيان، بدءًا من الروائح، وأنّ أقصى تطلّعاتي أنّ لا أموت في مكانٍ كذلك. في اللحظات التعيسة، التي كان لها النصيب الأوفر، أقول لنفسي أنّ الأدب وحده قادرُ على الخروج بي من هناك، قبل أنّ تفعلها هجمة مباغتة لداء السل. وإنْ شعر أحدهم بحكّة أخلاقيّة في روحه فبوسعه الاستنجاد بقطعة قرميد.

في أيام الأحد، وقت الصلاة، حين تذهب السيدة كارمن إلى موعدها الأسبوعي مع الربّ، ينتهز النزلاء الفرصة للاجتماع في غرفة أكبرنا، وهو رجل تعيس يدعى هيليودورو، كان يطمح في شبابه أنّ يصبح مصارع ثيران، لكنّه اكتفى بمتابعة الجولات، بعد أنّ غدا المسؤول عن مراحيض الرجال المفتوحة تحت الشمس في ساحة تمثال الثور.

- لقد اندثر فنّ مصارعة الثيران -كان يهتف- وبات حكرًا على المربّين الجِشاع والمصارعين الذين لا يمتلكون حسًّا مرهفًا. فالجمهور الجاهل لا يميّز بين الاستعراض والفنّ الذي لا يقدّره إلا العالِمين به.

- لو أعطوك الفرصة يا دون هيليودورو لاختلف الأمر كليًا.

- في هذا البلد لا ينجح إلا الحمقى.

- لا تذكّرني بهذا أرجوك...

وبعد خطبة الدون هيليودورو الأسبوعية، يحين وقت الاحتفالات.

يتكدس النزلاء مثل النقانق عند نافذة الغرفة، ليشاهدوا ويسمعوا، عبر المنور، آهات جارتنا التي تسكن شقة قريبة؛ تدعى ماروخيتا وتلقّب بالفليفلة لحدّة نبرتها وتقاسيم جسدها الشهيّة كالفليفلة الحمراء. كانت ماروخيتا تحصل على قوت يومها بتنظيف محلات مشبوهة، ثم تهب يوم الأحد والعطل الأخرى لخطيبها الطالب في مدرسة دينية، الذي كان يأتي بالقطار من مانريسا، لينغمس بحماس في علم الخطيئة، ومن يدري لماذا. رنّ جرس النزل حين كان النزلاء يهرعون إلى النافذة لينعموا بمشاهدة ردفيّ ماروخيتا العملاقين المحمرَّين، كعجين حلويات عيد الفصح، من شدّة الشبق. ونظرًا إلى عدم وجود متطوعين لفتح الباب، خوفًا من أنّ يخسروا مكانًا يسمح لهم بمتابعةٍ موفّقة، انسحبتُ من الجوقة ومشيتُ نحو الباب. وحين فتحته، اصطدمتُ برؤيةٍ استثنائيّة، لا تخطر على، في إطار بائس للغاية. الدون بيدرو □يذال، بكامل أوجه وأناقته وبزّته الكاملة من الحرير الإيطاليّ، يبتسم عند البهو.

- أشرقتِ الأنوار- قال وهو يدخل دون أنّ ينتظر دعوتي.

توقّف ليرى صالة الطعام التي كانت بمثابة السوق الشعبي في ذلك النزل الرديء، وتنهّد مشمئزًّا.

-ربّما من الأفضل أنّ نذهب إلى غرفتي- اقترحتُ عليه.

أفسحتُ له الطريق. وكان الهتاف، على شرف ماروخيتا وبهلوانيّاتها الجنسية، يخترق الجدران.

-يا له من مكان بهيج- علق □يذال.

-تفضّل معي إلى الجناح الرئاسيّ يا دون بيدرو- دعوتُه.

دخلنا وأغلقتُ الباب. بعد أنّ ألقى نظرة سريعة على غرفتي، جلس على الكرسي الوحيد ونظر إليّ بفتور. لم أبذل جهدًا في تخيّل الانطباع الذي تركه النزل المتواضع في عينَي الدون بيدرو.

كيف يبدو لك؟

ساحر. أفكّر في الانتقال إلى هنا أنا أيضًا.

كان الدون بيدرو يسكن في □يلا هيليوس، وهي عبارة عن مبنىً فخم ذي طابع حداثيّ مكوّن من ثلاثة طوابق يعلوها برجُ ضخم، على ثنايا الهضاب التي ترتفع صوب بيدرالبيس، عند التقاطع بين شارع أولزيت وشارع بنما. أهداه والده الـ□يلا منذ عشرة أعوام آملاً أنّ يبلغ الرشد ويبني عائلة، وهو مشروع تأخّر عنه □يذال بضعة عقود. فالحياة منّت عليه بمواهب كثيرة، من بينها موهبة تخييب آمال والده وإزعاجه بأيّ خطوة يُقدم عليها، كأن يتخذ من البؤساء أمثالي إخوة. أذكر ذات مرّة زرتُ فيها مُرشدي لأحمل إليه بعض الوثائق من الصحيفة، فإذا بي أصطدم بكبير آل □يذال في إحدى صالات □يلا هيليوس. عندما رآني، أمرني بأن آتيه بكأس من المياه الغازيّة ومنديلٍ نظيفٍ ليزيل إحدى البقع عن سترته.

- أظن أنّك أخطأت يا سيّدي. أنا لست خادمًا...

طعنني بابتسامةٍ من شأنها أنّ تنظّم أمور الكون، دون الحاجة إلى الكلام.

- أنت من يخطأ أيها الفتى. أنت خادم، سواء عرفت ذلك أم لا. ما اسمك؟

- دا□يد مارتين، يا سيّدي.

تذوّق الكبير اسمي.

- اتبع نصيحتي يا دا□يد مارتين. اخرج من هذا البيت وعد إلى المكان الذي تنتمي إليه. ستوفّر على نفسك مشاكل كثيرة، وتوفّرها عليّ أيضًا.

لم أُطلع الدون بيدرو على هذا اللقاء، بل هرعتُ إلى المطبخ لآتيه بالمنديل والمياه الغازيّة، وبقيتُ ربع ساعة أنظّف سترة ذلك الرجل. كان ظلّ الأسرة طويلًا للغاية، ورغم أنّ الدون بيدرو مولعُ بتقديم نفسه كفنّان بوهيمي، فإنّه لم يستطع أنّ يشذّ عن شبكة العائلة. إذ كانت □يلا هيليوس مريحة في موقعها المجاور من □يلا والده الكبيرة التي تهيمن على الجزء الأعلى من شارع بيارسون، كمزيج كاتدرائيّ من بناء متعدد الأعمدة، وسلالم وأسطح تشرف على كافّة برشلونة في الأفق، كطفل يتأمّل ألعابه المرميّة بعيدًا. وكان البيت الكبير -أو بِيتُ الأب، كما يسمّيه عموم آل □يذال- يوفد كلّ صباح بعثةً مكوّنة من أمهر الطبّاخات والخادمات إلى □يلا هيليوس لتنظفن وتلمّعن وتكوين وتطبخن وترقعن حياة مُرشدي الثريّ الذي يغطّ في سريرٍ من راحةٍ وغفلةٍ دائمة عن منغّصات الحياة اليوميّة. كان يجوب المدينة بسيارته العجيبة، هيسبانو سويسا، يقودها سائق

العائلة، مانويل سانغيير؛ ولعلّه لم يركب أيّ ترام في حياته كلّها. ولأنّه ابن القصر والأسرة النبيلة، كان يجهل الحزن والشقاءء اللذين يميّزان فنادق برشلونة الاقتصاديّة آنئذٍ.

- لا تتردّدْ في هذه الفكرة يا دون بيدرو.

- هذا المكان يبدو زنزانة -صرّح في النهاية- لا أعرف كيف تستطيع العيش فيه.

- براتبي، وبشقّ الأنفس طبعًا.

- أنّ لزم الأمر، أعطيتك ما ينقصك للعيش في مكانٍ لا تنبعث منه رائحة البول والكبريت.

- لن أدعك تحلم في هذا.

تنهّد □يذال.

- وهكذا لقي مصرعه مخنوقًا من النتانة وعزّة النفس. هذه شهادة وفاتك، مجانًا.

أخذ □يذال يمشي في الغرفة للحظاتٍ دون أنّ يفتح فمه، يتوقّف ليفحص خزانتي الصغيرة، وينظر من النافذة بوجه مشمئزّ يتلمس العفن الأخضر الذي يغطّي الجدران كلوحة، وينقر بسبّابته القنديل العاري المعلّق في السقف، كأنّما أراد التحقق من جودة تلك الأغراض.

- ما الذي جاء بك إلى هذه المنطقة يا دون بيدرو؟ هل أتعبك الهواء النقيّ في بيدرالبيس؟

- لم آت من البيت. بل من الجريدة.

- وبعد؟

- دفعني الفضول لأعرف أين تسكن. ثم إنّي أتيتك بشيء ما.

أخرج من معطفه ظرفاً من الرقّ الأبيض وأعطاني إيّاه.

- وصلت هذه الرسالة اليوم إلى الجريدة، باسمك.

أخذتُ الظرف وتفحّصته. كان مختومًا بالشمع الذي طُبع فوقه وجهُ لكائن مجنّح. ملاك. كما كان اسمي مكتوبًا بخطٍّ أنيق ولون أحمر.

- من أرسلها؟ -سألتُ مذهولاً.

شدّ □يذال كتفيه.

- أحد المعجبين. أو إحدى المعجبات. لا أعلم. افتحه.

فتحتُ الظرف بعناية وأخرجتُ منه صفحة مطويّة، مكتوبُ عليها بالخطّ ذاته:

صديقي العزيز اسمح لي أنّ أعبّر لك عن إعجابي وتقديري بالنجاح الذي حقّقته «ألغاز برشلونة» مؤخّرا على صفحات «صوت الصناعة». كقارئ ومولع بالأدب الرفيع، يشرّفني جدًا أنّ ألتقي بقلم شابّ وموهوب وله مستقبل واعد. واسمح لي، كتعبيرٍ عن امتناني لتلكّ الساعات الهنيئة التي أهدتني إيّاها قصصك، أنّ أقدّم لك مفاجأة صغيرة ستناسب ذوقك حتمًا، عند منتصف الليل في إنسوينيو دل رافال. سيكونون بانتظارك.

بكلّ ودّ أ. ك.

قوّس □يذال حاجبيه مستغربًا، إذ كان يقرأ خلف ظهري.

-مثير للاهتمام- غمغم.

ماذا تقصد؟ أيّ نوع من الأماكن هو، هذا الإنسوينيو؟

أخرج سيجارة من حمّالة السجائر البلاتينيّة.

-السيّدة كارمن لا تسمح بالتدخين في النزل- حذّرته.

- لماذا؟ هل دخان السيجارة يضر برائحة الصرف الكريهة؟

أشعل □يذال السيجارة وتذوّقها بمتعة مزدوجة، كأنه يتلذّذ بكل ما هو محظور.

- هل تعرّفت إلى امرأة يومًا يا دا□يد؟

حسنًا، بالتأكيد. الكثيرات.

- أقصد بالمعنى المقدّس.

- في الصلاة؟

- لا، بل على السرير.

- آه.

- ماذا إذًا؟

في الواقع، لم يكن في جعبتي ما قد يثير اهتمام رجلٍ مثله. إذ كانت مغامراتي وقصص الحبّ في مراهقتي تتّسم، حتى تلك اللحظة، بالتواضع ونقص ملحوظ في الأصالة. لا شيء في قاموسي الوجيز،من وكزاتٍ ولمسات وقُبلاتٍ مسروقة خلف البوّابات وداخل صالات السينما، كان ليحظى بثناء الأستاذ المعتكف على الفنون وعلوم ألعاب المضجع في المدينة الكونتيّة.

-ما شأن هذا؟- اعترضتُ.

استعار يذال أسلوب بروفسورٍ ما واستهلّ إحدى خطبه الرفيعة.

- في أيام شبابي، كان يجدر بالفتْية، أمثالي على الأقلّ، أنّ يبدؤوا تلك المعارك على أيدي نساء محترفات. حين كنت في عمرك، كان أبي، ورغم اعتياده حتى هذه اللحظة على المحلات الراقية في المدينة، يصطحبني إلى مكان يدعى إنسوينيو، على بعد أمتار قليلة من ذاك البناء الكئيب الذي شيّده المعماريُّ غاودي في لاس رامبلاس، بأمر من غويل، الكونت الغالي على قلوبنا. لا تقل لي إنّك لم تسمع به من قبل.

- بالكونت أم ببيت الدعارة؟

- ملعوبة... إينسوينيو كان محلًا راقيًا لزبائن منتخبين بعناية. والحقّ يقال إنّي خلتُه مغلقًا منذ سنوات، لكنّي قد أخطىء. خلافًا للأدب، بعض الأعمال لا تغلق أبوابها أبدًا.

- فهمتُ. هل هذه فكرتك؟ هل هي مجرّد مزحة؟

أنكر پيدرو.

-فكرة أحد الحمقى من زملائي في الجريدة إذاً؟

- ألمس شيئًا من الضغينة في كلماتك، لكنّي أشكّ بأن أحدًا ما، يكرّس نفسه لمهنة الصحافة النبيلة كجنديّ غرّ، يسمح لنفسه بمكان مشرّف كالإنسوينيو، أنّ بقي كما أذكره.

تأففتُ.

- لا يهمّ، فأنا لا أفكّر في الذهاب.

قوّس پيدرو حاجبيه.

- لا تقل لي الآن إنّك لست كافرًا مثلي، وإنّك تريد الوصول إلى عشّ الزوجيّة طاهر القلب والأعضاء السفليّة، أو أنّ روحك العفيفة ترغب في انتظار اللحظة السحريّة التي يأتيك فيها الحبّ الحقيقي باللذة الجسدية والروحيّة، عبْر تناغم يباركه الروح القدس، كي تملأ العالم بأبناء يرثون اسمك وعيون أمّهم، المرأة القدّيسة الشريفةً صاحبة الفضيلة والنزاهة، فتشبكان يدًا بيد لتعبرا أبواب السماء تحت نظرةٍ تملؤها شفقة يسوع الطفل.

- لم أكن أريد قول هذا.

- هذا يسعدني. فمن الممكن، أكرّر: من الممكن، ألا تأتي هذه اللحظة أبدًا. وربّما يفوتك العشق، والرغبة أو القدرة على أنّ تهب حياتك لامرأة ما. وقد تبلغ، مثلي، الخامسة والأربعين عامًا لتفطن أنّك لم تعد شابًا وأنّ ملاك الحبّ لم يرمك بسهامه، ولم يمنحك سريرًا من الأزهار البيضاء على

المذبح، وأنّ السبيل الوحيد للانتقام هو أنّ تسرق من الحياة متعة ذلك اللحم المتعرّق والدافئ الذي يتبخر أسرع من النوايا
الحسنة، أنّه أشبه إلى السماء من أيّ شيء تصادفه على هذه الأرض القذرة، حيث كل شيء معرُّض للفناء، بدءًا من الجمال وانتهاءً بالذاكرة.

تركتُ لحظة من الصمت المهيب تمضي كأنها إشارة على الرضا. كان □يذال مولعًا بالأوبرا حتى تقمّص إيقاع الحواريّات الأوبراليّة الخالدة. لم يكن يتغيّب عن موعده مع بوتشيني في شرفة العائلة في مسرح المعهد.

وكان واحدًا من القلائل الذين يذهبون إلى هناك، بغضّ النظر عن البؤساء الذين يتكدسون في برج الحَمام، ليصغي إلى الموسيقى التي يحبّها جدًا حتّى أثّرتْ في خطابه عن الذات الإلهية وتلك البشرية، كذاك الخطاب الذي كان يجود به على مسامعي يومها.

-ما بك؟- سأل متحدًّيا.

- ذاك المقطع الأخير يذّكرني بشيء ما.

فوجئ □يذال، ثم تنهّد وأومأ برأسه.

- أنّه من «جريمة في حرم المسرح» -اعترف- المشهد الأخير حيث ميراندا لافلور تطلق النار على الماركيز الظالم، الذي حطّم فؤادها بخيانته لها، ذات ليلة شبق في الجناح الزواجيّ من فندق كولون، مع زفيتلانا إيفانوفا جاسوسة القيصر.

- بدا لي ذلك. لم تكن لتختار مقطعًا أفضل من هذا. إنها رائعتك الأدبيّة يا دون بيدرو.

ابتسم □يذال على الإطراء وفكّر أنّ كان بوسعه إشعال سيجارة أخرى.

-وهذا لا ينفي وجود الحقيقة فيما أقول- ختم كلامه.

جلس على حافة النافذة، بعد أنّ وضع منديلًا كي لا يتّسخ بنطاله الفاخر. رأيتُ سيّارته، هيسبانو سويسا، مركونة في الأسفل، عند زاوية شارع برنسيسا. كان السائق مانويل يلمّع معدنها الكروميّ بقطعة قماش
كأنه يتعامل مع منحوتة لرودين. كم يذكّرني مانويل بوالدي، رجلين من الجيل نفسه الذي عاش حقبة الشقاء المدقع، حتى نُقشت ذاكرتهم على وجوههم. سمعتُ من أحد الخدم في □يلا هيليوس أنّ مانويل سانغيير قضى وقتًا طويلًا في السجن، وأنّه منذ خروجه كابد سنواتٍ عجافًا، إذ لم يمنحه أحدُ فرصة العمل سوى في تفريغ الحمولات والصناديق عند المرفأ، وهي مهنة لم تعد تناسب عمره أو صحّته. إلى أنّ خاطر بحياته لينقذ □يذال من الموت تحت الترام. واعترافًا بهذا الفضل، قرّر □يذال، بعد أنّ عرف بحال الرجل المسكين، أنّ يمنحه عملًا وإذاا في الانتقال مع زوجته وابنته إلى الشقّة الصغيرة فوق موقف السيارات في □يلا هيليوس. وطمأنه بأنّ الصغيرة كريستينا ستدرس على يد أفضل المعلّمين الذين يأتون كلّ يوم إلى قصر والده في شارع بيارسون كي

يعلّموا أولاد العائلة النبيلة، وأنّه بوسع زوجته أنّ تزاول مهنة الخياطة للعائلة. وكان حينذاك يفكّر في شراء أوّل سيّارة تباع في برشلونة، فهو بحاجة إلى سائق ما دام السادة الشبّان لا ينوون توسيخ أياديهم في المحرّكات وآلات الدفع الغازيّ. وافق مانويل بالطبع، وسرعان ما تعلّم فن قيادة العربات المتحركة تاركًا خلف ظهره عربة الحصان. وبعد هذا الانتشال من الشقاء، أكّدت الرواية الرسمية أنّ مانويل سانغيير وعائلته يؤمنون إيمانًا أعمى بـ□يذال، مخلص البؤساء. وكنت مترددًا بين تصديق هذه الرواية أو نسبها إلى سلسلة الخرافات الكثيرة التي نُسجَت حول شخصيّة □يذال، الأرستقراطيّ الطيب، إذ لم يكن ينقصه سوى التجلّي أمام إحدى الراعيات اليتيمات محاطًا بهالةٍ من نور.

-بات وجهك وجه وغدٍ منذ أنّ شردتَ في أفكار خبيثة- صرّح □يذال - ما الذي يدور في خلدك؟

- لا شيء. كنت أفكّر بطيبة قلبك يا دون پيدرو.

- في عمرك ووضعك، الشكّ لا يفتح أيّ باب.

- هذا يفسّر كل شيء.

- هيا، ألق التحية على الرجل الشهم مانويل. أنّه يسأل عنك دومًا.

أشرفتُ من النافذة. عندما رآني السائق، الذي كان يعاملني دومًا كسيّد يافع وليس كحثالة كما كنتُ عليه في الحقيقة، ألقى عليّ التحية، فبادلته بمثلها. كانت ابنته كريستينا، ذات البشرة الناصعة والشفتين الحمراوين، تجلس داخل السيارة. تكبرني بعامين، وأذكر كيف حبستُ أنفاسي حين رأيتها للمرّة الأولى التي دعاني فيها □يذال إلى □يلا هيليوس.

-لا تنظرْ إليها كثيرًا وإلا حطّمتها- غمغم □يذال خلف ظهري.

استدرتُ ووجدتُ نفسي أمام تعبيرٍ مكيافيليٍّ غالبًا ما كان □يذال يخصّه لشؤون القلب والأعضاء النبيلة الأخرى.

- لا أفهم عمّا تتحدث.

- يا لك من صادق -ردّ □يذال- ماذا قرّرت بشأن هذه الليلة إذًا؟

قرأتُ الرسالة ثانية واحترتُ.

- هل تتردد إلى محلات من هذا النوع يا دون پيدرو؟

- لا أنفق المال لأختلي بامرأة منذ أنّ كان عمري خمسة عشر عامًا، وحتى في تلك الآونة كانت على نفقة والدي -أجاب □يذال بلا تكبّر - ولكن أنّ أهداني أحدهم حصانًا...

- لا أعلم يا دون بيدرو...

- بل أنت تعلم.

ربّت □يذال على كتفي ثم اتجه نحو الباب.

- لديك سبع ساعات حتى منتصف الليل. أقول ذلك في حال أردت أنّ تنعم بقيلولة سريعة كي تجمّع قواك.

أشرفتُ من النافذة ورأيته يتجه نحو السيارة. فتح له مانويل الباب ليركب بصعوبة على المقعد الخلفي. سمعتُ صوت محرك الهيسبانو سويسا يستهلّ سيمفونيته بهدير المكابس الحراريّة. في تلك اللحظة، رفعت كريستينا، ابنة السائق عينيها ونظرت نحو نافذتي. فابتسمتُ لها، لكنّي أحسستُ أنها لا تذكرني. أحادت أبصارها بعد هنيهة وابتعدت سيارة □يذال العجيبة لتعود به إلى كوكبه.

3 في تلك الأيام كان شارع كوندي دل آسالتو ينفتح كممرّ من أعمدة الإنارة والإعلانات الضوئيّة بين ظلمات الرا□ال. وكانت الملاهي والمراقص، والمحلات التي يصعب تصنيفها، تجثم على جانبيّ الطريق؛ فضلاً عن بيوت تعنى بالأمراض الجنسية والواقيات الذكرية والمغاسل التي تفتح أبوابها حتى الفجر، بينما تمتزج الناس من كلّ طبقة، من السادة الصغار أبناء الطبقة العليا حتى طاقم بحّارة السفن الراسية في الميناء، بشخصيّات خارجة عن المألوف تظهر بعد مغيب الشمس. وعلى كلا الجانبين، هنالك أزقّة ضيّقة ومدفونة في الضباب، يرتدّ إليها صدى الابتهالات في بيوت الدعارة ذات المظهر الردئ.

وكان الإينسوينيو يحتلّ الجزء الأعلى من بنايةٍ مزوّدة بصالة موسيقي في الطابق الأرضيّ، وثمّة ملصقات ضخمة على جدرانها تعلن عن عرضٍ لراقصةٍ يلتفّ شالٌ شفافٌ على خصرها يُبرز مفاتنها، وتمسك بين ذراعيها أفعىً سوداء يبدو لسانها المفطور كأنه يقبّل ثغر الراقصة.

«إيفا مونتينيغرو ترقص تانغو الموت» يقول الإعلان بحروفه الصارخة. «ملكة الليل في ستّ أمسيات استثنائية لا تفوّت. بمشاركة استثنائية من ميسميرو، قارئ الأذهان الذي سيكشف أسراركم الخفية».

على جانب مدخل المحلّ، ثمّة بابٌ صغيرٌ يفضي إلى سلالم طويلةٍ
وضيّقة، جدرانها مطليّة باللون الأحمر. صعدتُ السلالم وتوقّفت أمام باب كبير من خشب شجرة بلّوط، وعليه مطرقةٌ لها شكل حوريّة منحوتة من البرونز، تغطّي فرجها بورقة عنب متواضعة. طرقتُ مرّتين وانتظرتُ متجنّبا انعكاسي على مرآة كبيرة مظللة تقع على جانب كبير من الحائط.

وحين كنت أفكر بالفرار بأقصى سرعة، انفتح الباب على ابتسامة صافية لسيّدة متقدمة في العمر، شعرها معقودٌ وكامل الشيب.

- لابدّ أنّ حضرتك السيد دا□يد مارتين.

لم يكن أحدٌ قد وصفني بالسيد قبلها؛ فوجئتُ بهذا الاستقبال الجليل.

- شخصيًا.

- هلا دخلتَ ولحقتَ بي يا سيّدي...

مشيتُ خلفها في ممرٍّ قصير يؤدّي إلى صالون دائريّ واسعٍ، جدرانه.

ملبّسة بالمخمل الأحمر وأضواء القناديل خافتة. كان السقف على شكل قبّة زجاجيّة مزوّقة بالخزف، تتدلّى منها نجفة من كريستال، وتحتها طاولة من خشب الأكاجيو الممتاز، يعتليها مذياع عملاقٌ يبثّ أنغام أوبرا معينّة.

- هل تفضل مشروباً ما؟

- سأكون ممتناً لك لو أتيتني بكأس ماء.

- ابتسمت السيدة ذات الشعر الأبيض دون أنّ يرفّ لها رمش، كان أسلوبها شديدَ الاحترام ويبعث على الارتياح.

- لعلّك يا سيّدي تفضّل كأسًا من الشمبانيا أو مشروبًا كحوليًا آخر. أو ربّما نبيذٌ أبيض خالصٌ من كروم خيريس.

لم يكن فمي قد جرّب أكثر من كروم ماء الصنبور، لذا عبُّرت عن لا مبالاة.

- كما تشائين.

أومأت السيدة دون أنّ تغيب ابتسامتها وأشارت إلى إحدى أرائك الصالون الفاخرة.

- تفضّل بالجلوس يا سيدي، ستأتي كلويه حالاً.

انقطعتْ أنفاسي.

- كلويه؟

لم تعر السيدة ذات الشعر الأبيض اهتمامًا لذهولي؛ واختفت في باب يتراءى خلف ستار من اللآلئ السوداء، وتركتني وحيدًا بأعصابٍ متوترة ورغبةٍ لا أقوى على الاعتراف بها. طفتُ في الصالون كي أزيل عني الرجفة التي اعترتني. لو استثنينا الموسيقى الخافتة وضربات القلب عند الصدغين، لكان ذلك المكان أشبهَ بالمدفن. ستّة ممرّات تنطلق من الصالون، وعلى جانبَي كلٍّ منها فتحاتٌ مغطاة بالستائر الزرقاء، تفضي إلى ستة أبواب بيضاء بمصراعين، وكلّها مغلقة. ارتخيتُ على إحدى الأرائك المصنوعة لراحة مؤخرات الأمراء الحكّام والجنرالات المهابين الطامحين لقيادة

انقلاب عسكري. بعد قليل، عادت السيدة البيضاء بكأس من الشمبانيا على طبق فضيّ. أخذتُ الكأس ورأيتها تختفي مجددًا في الباب ذاته. شربتُ الشمبانيا برشفة واحدة وفتحتُ ياقة قميصي. بدأت أشكّ أنّه مقلبٌ نسجه □يذالٍ. في تلك اللحظة، انتبهت لكائنٍ يقترب نحوي من إحدى الممرّات. يبدو طفلة، وكان كذلك حقًّا.

تمشي مطأطئة الرأس، فلا. أستطيع أنّ أرى عينيها. نهضتُ واقفًا.

ركعت الطفلة احترامًا وأشارت إليّ بأن أتبعها. وحينها فقط لاحظتُ
أنّ إحدى يديها كانت خشبيّة، كأيدي الدمى خلف واجهة المحلّات.

اقتادتني الطفلة إلى آخر الممرّ، وفتحت الباب، بمفتاح معلّق على صدرها، ثم تنحّت جانبًا. كان الظلام يهيمن على الغرفة تقريبًا. دخلتُ خطوتين، محاولًا أنّ أوسّع بصري. شعرتُ أنّ الباب يُغلقَ خلف ظهري، وحين استدرتُ لم أجد الطفلة. سمعتُ صوت القفل وفهمتُ أنّي محبوس هناك. بقيتُ واقفًا لدقيقة بلا حراك، حتى اعتادت عيناي على الظلام تدريجيًا وتكشّفت أغراض الغرفة من حولي. كانت الجدران مكسّوة بقماشٍ أسود من الأرضيّة حتّى السقف. وعلى أحد الجوانب، رأيتُ سلسلة من الأغراض الغريبة التي لم أرها من قبل ولم أكن أعرف ما أنّ بدت لي مشؤومة أم مغرية. ثمّة سريرٌ واسعٌ مستديرٌ عند مسندٍ شبيهٍ بشبكة عنكبوتٍ ضخمةٍ عليها شمعدانان يحملان شمعتين سوداوين مشتعلين ينبعث منهما عطرٌ كذاك الذي ب يعشّش في القبب وغرف المتعة.

وبجوار السرير، ثمّة نافذة ذات قضبان حديدية معوجّة. ارتعشتُ. فذلك المكان كان مطابقًا لغرفة نوم الجنيّة كلويه، تلك التي رسمتْها مخيّلتي في «ألغاز برشلونة». ثمّة رائحة موادٍّ محروقة. تَأهُّبت للبحث عن الباب فإذا بي أكتشف أنّي لست وحيدًا. توقفتُ مصعوقًا حين تراءى لي وجه مرسومٌ خلف النافذة. عينان تلمعان وتراقباني. رأيتُ أصابع بيضاء، أظفارها المدبّبة طويلةٌ ومطليةٌ بالأسود، تظهر من بين قضبان النافذة.

مضغتُ ريقًا.

-كلويه؟- غمغمتُ.

إنّها هي. كلويه التي ابتدعتُها بنفسي. المرأة الفتّانة التي لا تضاهى، تخرج من حكاياتي بلحمها وأزيائها. لم أر بشرة أشدّ نصاعةً من بشرتها؛ شعرها أسودٌ وبرّاق ومقصوص على زاوية حادّة يحيط بوجهها. وكأنّ شفتيها مرسومتان من دم طازج. عيناها الخضراوان مكللتان بهالتين من الظلّ الأسود. كانت حركاتها كالقطط، كما لوَ أنّ جسدها -تحت درعها المشعِّ كالحراشف- يبدو مائيًّا في انسيابه ولا يعير أيّ اهتمامٍ للجاذبيّة.

عنقها الممشوق والطويل مطوّق بشريط جلديّ أحمر فاقع، يحمل صليبًا مقلوبًا. رأيتها تقترب ببطء، وأنا لا أجرؤ على التنفّس، وعيناي لا تحيدان عن ساقيها المرسومتين بريشةٍ عجيبةٍ والمغلّفتين بجوارب حريريةٍ يضاهي سعرُها ما أتقاضاه لسنة كاملة، وحذاؤها مدبّب الرأس مشدودٌ على كاحلها بأربطة حريريّة. لم أر شيئًا في حياتي كهذا الجمال، رائعًا ومروّعا في أنّ.

تركتُ ذلك المخلوق يقودني حتى السرير حيث وقعتُ على مؤخّرتي حرفيًا. كان ضوء الشموع يداعب جسدها، وشفتاي على مستوى بطنها العارية. ودون أنّ أنتبه لتصرّفاتي، قبّلت تحت سرّتها ومسحتُ جلدها بوجنتيّ. وحينها نسيتُ من أكون وأين كنت. جثمتْ على ركبتيها أمامي وأخذت يدي اليمنى. لعقت أصابعي مثل قطة أليفة إصبعًا إصبعًا، ثم نظرت إليّ وراحت تنزع ثيابي. أردتُ مساعدتها، لكنها ابتسمت وأبعدت يديّ.

- شششش!

ثم اقتربت من وجهي ومصّت شفتيّ.

- والآن، انزع ثيابي. برفق. ببطء.

عرفتُ حينها أنّ تلك اللحظات بمثابة مكافأة عن طفولتي المريضة والحزينة. نزعتُ ثيابها ببطء، كلّها ما عدا الشريط الجلديّ حول عنقها وتلك الجوارب السوداء على فخذيها، كذكرىً يقتات عليها الكثيرُ من البؤساء أمثالي لمائة عام.

- داعبْني -همست في أذني- لاعبْني.

داعبتُ وقبّلت كل شبر من جسمها كما لو أردتُ الاحتفاظ به مدى الحياة. لم تكن كلويه في عجالة من أمرها، بل كانت تستجيب للمسات يديّ وشفتي بأنّات خفيفة تقود شهوتي. ثم ألقتني على السرير وغمرتني بجسمها حتى شعرتُ بالحريق يشبّ في كلّ مسامة من جلدي. وضعتُ يديّ على ظهرها ومضيتُ أستكشف ذلك الخط العجيب الذي يرسم عمودها الفقري. كانت نظراتها الحسّاسة تراقب وجهي على بُعد بضعة سنتمترات. فشعرتُ أنّه لا بدّ أنّ أقول شيئًا ما.

- اسمي...

- شششش!

قبل أنّ أنطق بكلمة غبيّة أخرى، أطبقت كلويه شفتيها على شفتيّ وغيّبتني عن هذا العالم لساعةٍ كاملة. كانت على علم بضعف خبرتي، لكنها أشعرتني بأنّها لا تعير انتباهًا. إذ كانت تستبق أيّ حركة أنوي القيام بها، وتقود يديّ على جسدها دون خجلٍ أو وجل. لم تعبّر عيناها عن أيّ انزعاج أو توتّر. كانت تدعني ألمسها وأتذوّقها بصبرٍ جميل، وبنعومةٍ أنستني كيف بلغتُ ذلك المكان. تلك الليلة، في غضون ساعة قصيرة، تعرُّفت إلى ثنايا جسمها، كما يتعلم الآخرون الصلوات أو اللعنات.

وبعد ذلك، حين لم يتبّق لديّ من أنفاس، أسندتْ كلويه رأسي على نهديها وداعبت شعري خلال صمت طويل، حتى غفوتُ بين ذراعيها ويديّ بين فخذيها.

وعندما استيقظت، وجدتُ ظلام الغرفة يتستّر على غيابها. لم يعد جسدها بين يديّ، بل حلّت محلّه بطاقةٌ مصنوعة من ذات الرقّ الأبيض للظرف الذي حمل الدعوة، وعليه -تحت شعار الملاك- قرأتُ:

أندرياس كوريلّي ناشر منشورات النور(1) 69، شارع سان جرمان. باريس وفي الخلف ثمّة ملاحظة مكتوبة بخط اليد:

عزيزي دا□يد الحياة مكوّنة من آمال عظيمة. حين تشعر بأنّك مستعدٌّ لتحويل آمالك إلى حقيقة، تواصلْ معي. سأكون في انتظارك. صديقك وقارئك أ.ك.

لملمتُ ثيابي عن الأرض ولبستها. لم يكن باب الغرفة مقفولاً.

مشيتُ في الممرّ حتى الصالون، حيث وجدتُ المذياع مطفأ. لم يكن هنالك أثر للطفلة ولا للسيدة ذات الشعر الأبيض التي استقبلتني. كان الصمت يطبق على المكان. وبينما كنت أتّجه نحو المَخرج تولّد لديّ انطباع بأنّ الأضواء خلف ظهري تُطفأ والظلام يبتلع الممرّات والغرف تدريجيًا. خرجتُ إلى البهو ونزلتُ السلالم لأعود إلى العالم على مضض. وحين بتّ في الطريق مشيتُ باتجاه لاس رامبلاس، تاركًا ورائي صخب المحلات الليلية وزحمتها. كان الضباب الخفيف والحارّ يصعد من الميناء، ومِيض نوافذ فندق الشرق الضخمة يصبغ الضباب
بلون أصفر، متّسخ وغباريّ، يمحو أثر المارّة ليحيلهم إلى زخارف من بخار. واصلتُ المشي بينما يتلاشى عطر كلويه من ذهني، وتساءلتُ أنّ كان لشفتَي كريستينا سانغيير، ابنة سائق □يذال، المذاق نفسه.

4 لا يعرف المر ء معنى الظمأ قبل أنّ ينهل الماء للمرّة الأولى. بعد ثلاثة أيّام من زيارتي للإنسوينيو، ظلّت ذكرى جسد كلويه تحرق أفكاري. ودون أنّ أقول شيئًا لأحد -ولا لـ□يذال نفسه- قررت أنّ أجمع بعض المدّخرات القليلة التي بقيت عندي لأعود في المساء إلى هناك، آملًا أنّ أشتري لحظةً أخرى بين ذراعيها. حلّ منتصف الليل حين بلغتُ تلك السلالم ذات الجدران الحمراء، تاركًا خلف ظهري قلعة المراقص والحانات الصاخبة، وصالة الموسيقى والمحلات صعبة التصنيف، تلك التي شيّدتْ في شارع كوندي دل آسالتو خلال سنوات الحرب العظمى في أوروبا. كان الضوء المرتجف خلف البوّابة يرسم العتبات على مساري. حين وصلتُ إلى البهو، توقّفت وبحثتُ عن المطرقة. لامست أصابعي المقبض المعدنيّ الثقيل. وحين رفعته، انفتح الباب بضعة سنتمترات ففهمتُ أنّه لم يكن مغلقًا. دفعته برفق فداهم الصمت المطبق وجهي. كان أمامي ظلٌّ لازورديّ يتَمدد شيئًا فشيئا. مشيتُ خطوتين مترددًا. كان انعكاس أضواء الشارع ينبض في المكان، ليكشف عن رؤىً هاربةٍ من الجدران العارية والأرضية الخشبيّة المفككة. وصلتُ إلى الصالون الذي أذكره مصممًا من الجلود والأثاث الفاخر. وجدتُه فارغًا.

بل كان الغبار الذي يكسو الأرضيّة يلمع مثل الرمل على بريق الإعلانات
الضوئيّة في الشارع. تقدّمت وأنا أترك خطًا من البصمات على الغبار. لم يكن هنالك أثر للمذياع ولا الأرائك ولا اللوحات. بل رأيتُ السقف مهشمًا بما يتيح رؤية الدعامات الخشبية المسودّة. طلاء الجدران كالخرق القاتمة شبيهٌ بجلود الأفاعي. اتجهتُ نحو الممرّ الذي يفضي إلى الغرفة حيث التقيتُ كلويه. عبرتُ ذلك النفق المظلم حتّى وصلتُ إلى الباب بمصراعين، الذي لم يعد أبيض اللون. لم يكن عليه سوى فتحة في الخشب، كما لو أنّ المقبض خُلع بعنف. فتحتُ ودخلتُ.

كانت غرفة كلويه مثل زنزانة مظلمة. الجدران متفحمة وجزء كبير من السقف مهدّم. كان بوسعي رؤية الغيوم السوداء، التي تجتاز السماء، والقمر الذي يعرض هالة فضية على هيكل سريرها المعدنيّ. وحينذاك، سمعتُ طقطقة على الأرض خلف ظهري فاستدرتُ جزعًا لأفهم أنّي لم أكن بمفردي. هنالك ملامح رجل غامضة وحادّة تظهر عند المدخل. لم يكن بوسعي تمييز وجهه، لكنّي كنت على يقين من أنّه يراقبني. ظلّ هناك، متسمِّرا مثل عنكبوت، حتى تجرّأت وتقدّمت خطوة باتجاهه.

فاختفى الوجه في الظلّ، كأنّه لم يكن. وحين عدتُ إلى الصالون لم أجد أحدًا. كانت خيوط الضوء تتسلل من إعلان ضوئيّ على الجانب الآخر من الشارع وتتموّج في المكان قليلًا لتكشف عن كومة فتات صغيرة بجانب الحائط. ثمّة شيْء ما يظهر من الكومة. أصابع. نفضتُ الرماد، الذي كان يغطّيها، حتى ظهرت باقي أجزاء اليد. أخرجتها، فرأيت أنّها كانت مبتورة من المعصم. تذكّرتها حالاً وفهمتُ أنّها يد تلك الطفلة التي ظننتُ أنّها خشبيّة، لكنّها كانت من خزف. تركتها تسقط من يدي وابتعدتُ.

تساءلتُ أنّ كنتُ قد تخيّلت وجود ذلك الرجل، إذ لم أجد آثارًا لقدميه على الغبار. نزلتُ إلى الشارع وبقيتُ على الرصيف أتأمّل نوافذ
الطابق الأوّل. كنت فريسة للارتباك بينما يمرّ الناس ضاحكين، لا يعيرون وجودي اهتمامًا. حاولتُ أنّ أبحث عن وجه ذلك الرجل بين الزحام. كنت أعلم أنّه هناك، لعلّه يراقبني على بُعد أمتار قليلة منّي. ثم قطعتُ الشارع ودخلتُ إلى مقهىً صغير مكتظٍّ بالزبائن. استطعتُ أنّ آخذ لنفسي فسحة على الكونتوار وأشرتُ إلى النادل.

- تفضل.

كان فمي جافًا كأنّي ابتلعتُ من رمل الشواطئ.

-بيرة- ارتجلتُ.

وبينما كان النادل يسكب البيرة، انحنيتُ نحوه.

- عذرًا، هل تعلم أنّ كان المحلّ قبالتنا، الإنسوينيو، قد أغلق أبوابه؟

ترك النادل الكأس على الكونتوار ونظر إليّ كما لو كنت أبله.

-أنّه مغلق منذ خمسة عشر عامًا- قال.

- هل أنت واثق من هذا؟

- بالتأكيد. لم يفتح أبدًا بعد الحريق. هل ترغب في شيء آخر؟

أومأتُ نافيًا.

- أربعة قروش.

دفعتُ المبلغ وانصرفتُ دون أنّ أمسّ الكأس.

في اليوم التالي، أتيتُ قبل الدوام إلى مقرّ الصحيفة واتجهتُ مباشرة إلى قسم الأرشيف في الطابق السفليّ. ورحتُ أنقّب بين الصفحات الأولى لـ((صوت الصناعة))، الصادرة منذ خمسة عشر عامًا، وفقًا لما قاله النادل، بمساعدة ماتياس، المسؤول عن الأرشيف. استغرق الأمر حو الي الأربعين دقيقة حتى وجدتُ الحدث، في زاوية بالكاد تُرى. اندلع الحريق في فجر عيد ((القربان المقدّس)) عام 1903. لقي ستة أشخاص مصرعهم بين ألسنة اللهب: زبون، أربع فتيات ناشطات وطفلة صغيرة تعمل هناك. أرجأت الشرطة ورجال الإطفاء سبب الكارثة إلى عطلٍ أصاب أحد المصابيح، لكنّ خوريّ الكنيسة المجاورة ذكر العدالة الإلهية وتدخُّل الروح القدس كعاملين أساسيّين.

عدت إلى النزل، واستلقيتُ على السرير وحاولت عبثًا أنّ أعانق النعاس. أخرجتُ من جيبي بطاقة فاعل الخير الغريب التي وجدتها بين يديّ حين استيقظتُ على سرير كلويه وقرأتُ خلفيّتها مجدَّدا تحت الظلام. «آمالٌ عظيمة».

5 في عالمي، نادرًا ما تحقّقت الآمال، سوا أكانت عظيمة أم ضعيفة.

قبل بضعة أشهر كان أملي الوحيد، كلّ مساء، حين أخلد إلى النوم، هو التحلّي بما يكفي من الشجاعة لأتحدّث ولو بكلمة إلى كريستينا، ابنة سائق مُرشدي؛ وأن تمضى الساعات التي تفصلني عن الفجر بسرعة كي أعود إلى «صوت الصناعة». أمّا الآن، حتى ذلك الملاذ كان يفلت من يدي. ربّما كنت سأحظى مجددًا بمودّة زملائي أنّ فشلتْ محاولاتي فشلًا ذريعًا، كنت أقول لنفسي. ربما غُفرتْ كلّ ذنوب شبابي لو كتبتُ قصة ركيكة ومبتذلة يشمئزّ القرّاء من مطلعها. ربّما كان الثمن أرخص مما أتوقّع لأشعر بأنّي في بيتي من جديد. ربّما.

كنت قد وصلتُ إلى «صوت الصناعة» منذ أعوام بعيدة بصحبة والدي، ذلك الرجل اليائس، عاثر الحظ، الذي عاد من حرب الفلبين ليجد مدينة لا تعترف به، وزوجة نست وجوده وقرّرت أنّ تهجره قبل عودته بعامين. تركتْ له قلبًا محطمًا وابنًا لم يكن يرغب فيه ولا يعرف ماذا يفعل به. أبي لم يكن يعرف فعل شيء، وكان بالكاد قادرًا على قراءة اسمه وكتابته. جلّ ما تعلّمه من الحرب

هو أنّ يقتل رجالاً آخرين، مثله، قبل أنّ يقتلوه، باسم قضيّة عظيمة وفارغةٍ تصبح أكثر سخفًا وبُطلانًا كلما حان موعد المعركة.

عقب عودته من الحرب، هرم والدي ليبدو أكبر بعشرين عامًا ممّا كان عليه حين التحق بالجيش. حاول أنّ يبحث عن عمل في مصانع متعدّدة في البويبلو نويفو وحيّ سان مارتي. كان يستمرّ في العمل بضعة أيام فقط؛ وكنت أراه عاجلًا أم آجلًا، يعود إلى المنزل بنظرةٍ يملؤها الوهن والإحباط. مع الوقت، ولانعدام البدائل، وافق أنّ يعمل كحارسٍ ليليّ في جريدة «صوت الصناعة». كان الأجر زهيدًا لكنّ الأشهر تمرّ بسرعة، ويبدو أنّه لم يعد يعاني الويلات منذ أنّ عاد من الحرب. إلاّ أنّ فصل السلام كان قصيرًا، وسرعان ما ظهر بعض رفاق السلاح القدامى، الذين عادوا كجثث حيّة، معطوبةٌ أجسادُهم وأرواحُهم، ليكابدوا ازدراء مَن أرسلهم إلى الموت باسم الله والوطن. أدخلوا والدي في أعمال قذرة وخطيرة لم يفهمها أبدًا.

وغالبًا ما كان يختفي يومين ليعود ورائحة البارود تنبعث من ثيابه ويديه، والمال في جيبه. يدخل إلى غرفته ظنًّا منه أنّي لا أنتبه إليه، فيحقن ذراعه بالقليل أو الكثير الذي استطاع تأمينه. في البدء لم يكن يغلق الباب أبدًا، إلى أنّ فاجئني ذات يوم وأنا أتلصّص عليه، فصفعني بشدّة حتى مزّق شفتيّ. ثم عانقني إلى أنّ زالت قوى ذراعيه وبقي مستلقيًا على الأرض، والإبرة ما تزال تقب جلده. فسحبته وغطّيته بوشاحٍ ما. وبعد ذلك الحادث أخذ يغلق الباب على نفسه.

كنا نعيش في عليّة صغيرة فوق مجمع المسرح الجديد في مبنى الموسيقى الكتالونيّ. كان مكانًا باردًا وضيّقًا تعبث الريح والرطوبة بجدرانه. وكنت أجلس على الشرفة الصغيرة، وتتأرجح ساقاي، لأشاهد المارّة وأتأمل تلك الصخرة المنحوتة والأعمدة العجيبة التي تكثر على الطرف الآخر من الشارع، وغالبًا ما كانت تبدو لي قريبةً أستطيع لمسها بأصابعي، بينما تبدو الأخريات، أكثرها بعيدة كالقمر. كنت طفلًا
ضعيفًا سقيمًا، غالبًا ما أصاب بالحمّى والالتهابات التي تجرّني إلى حدود القبر ثم تندم دومًا في اللحظة الأخيرة وتطلق سراحي لتنطلق مجددًا بحثًا عن فريسة أكثر أهميّة منّي. وحين كنت أمرض، كان صبر والدي ينفد. وبعد الليلة الثانية من السهر بجانبي، يتركني لجارتنا كي تعتني بي، ويختفي من البيت عدّة أيام. ومع الوقت بدأتُ أظنّ أنّه يأمل العودة ليجدني ميتًا كي يخفّف عن كاهله عبء ابنه الضعيف الذي لا تُرجى منه فائدة.

وكم تمنّيت أنّ يحدث هذا، لكنّ والدي لطالما عاد ليجدني حيًّا، بل وأطول قامةً من المرة السابقة. فأمّنا الطبيعة التي لم تكن تستثنيني من قانونها الجزائيّ المليء بالبكتريا والمعاناة، لم تجد الطريقة المثلى لتطبّق عليّ قانون الجاذبيّة. وخلافًا لأيّ منطق، كنت أبقى على قيد الحياة في أعوامي الأولى على شفا حفرة من طفولةٍ قضيتُها على البنسلين. في تلك الفترة، لم يكن الموت متخفّيًا، بل كنّا نستطيع أنّ نراه ونشمّ رائحته، في كلّ مكان، وهو يلتهم أرواحًا لم يتسنّ لها الوقت لاقتراف الآثام.

وهكذا، لم أعهد وجود أصدقاء في حياتي سوى الورق والحبر. في المدرسة، تعلّمت القراءة والكتابة قبل أطفال الحيّ الآخرين بكثير.

وحيثما كان أصدقائي يرون آثارَ حبرٍ مبهمةً على الأوراق، كنت أرى فيها أضواءً وشوارع وشخوصًا. وكانت الكلمات، ولغز علمِها الغامض، يذهلني ويبدو لي كنافذةٍ على عالم فسيح، يعوّضني عن ذلك البيت وتلك الشوارع والأيام الصعبة التي كان من الواضح، لي أيضًا أنّها ستجلب سو الطالع ليس إلا. لم يكن يروق لوالدي وجود الكتب في البيت. كان يرى فيها ما يهينه، ناهيك عن الحروف التي لم يكن يستطيع فكّ طلاسمها. كان يقول لي أنّه سيأخذني معه إلى العمل ما أنّ أتمّ العشر سنوات، لذا من الأفضل أنّ أنزع من رأسي تلك الأحلام وإلا
أصبحتُ بائسًا وميِّتًا من الجوع. كنتُ أخفي الكتب تحت الفراش، وأنتظر خروجه، أو خلوده إلى النوم، كي أهبّ إلى القراءة. ذات مرّة فوجئتُ به في الليل يزجر غاضبًا. انتزع الكتاب من بين يديّ ورماه من النافذة.

- ستندم أنّ وجدتك مرّة ثانية تهدر الضوء في قراءة هذه السخافات.

لم يكن والدي بخيلًا، رغم الضيق الذي كنا نعاني منه الأمرّين. إذ كان يترك لي، كلما استطاع، بعض القروش كي أشتري الحلوى، مثل أطفال الحيّ. كان يعتقد أنّي أنفقها على شرا أعواد العرقسوس والفستق والسكاكر، لكنّي كنتُ أحتفظ بها في وعاء قهوة تحت السرير، وحين أصل بها إلى أربعة ريالات أو خمسة، كنت أسرع لشراء كتابٍ ما على غفلةٍ منه.

كان مكاني المفضّل في المدينة كلّها هو مكتبة «سيمبيري وأبناؤه» في زقاق سانتا آنا. ذلك المكان، الفوّاح برائحة الورق القديم والغبار الزكيّ، كان بمثابة معبدي وملاذي. إذ يسمح لي بائع الكتب بالجلوس على كرسيّ في الزاوية لقراءة ما طاب لي من أيّ كتاب. ولم يحدث أبدًا أنّ أخذ سيمبيري منّي ثمن الكتب التي وضعها بين يديّ، لكنّي كنت أترك بعض القروش التي وفّرتها على المصطبة، خلسةً، قبل أنّ أنصرف. كانت قروشًا قليلة، لا تكفي لشراء كنيِّب يحتوي على لفافات السجائر. وعند موعد الانصراف، كنت أرحل على مضض، وأنا أجرّ قدميّ وروحي. فلو عاد الأمر لي لعشتُ هناك.

ذات مرّة، خلال أعياد الميلاد، قدّم إليّ سيمبيري أغلى هديّة حصلتُ عليها في حياتي. كان مجلدًا قديمًا، قرأه الكثيرون قبلي وعاشوا في صفحاته حتى العمق.

- «آمال عظيمة» لكارلوس ديكنز... - قرأتُ على الغلاف.

بدا لي، من هذه الصيغة الإسبانية لاسمه الأول، أنّه أحد أصدقاء سيمبيري، فهو يعرف بعض الأدباء الذين يترددون إلى محلّه؛ كما كان يخصّ ذلك الكتاب فائق المودّة.

- هل هو صديقك؟

- صديق عمري. ومن الآن فصاعدًا، سيكون صديقك أيضًا.

وفي المساء، خبُّأت صديقي الجديد تحت ثيابي، كي لا يراه والدي، وحملته إلى البيت. قرأتُ «آمال عظيمة»، خلال ذلك الخريف الماطر، ذي الأيّام الرمادية، تسع مرات متتالية. إذ لم يكن لديّ ما أقرؤه، ومن جهة أخرى لم أكن أتوقّع وجود كتابٍ أفضل منه؛ حتى شككتُ بأنّ الدون كارلوس كتبه لأجلي فقط. وسرعان ما تأكدُّت من أنّي لا أرغب في الحياة سوى العمل كهذا السيّد ديكنز.

ذات ليلة، استيقظتُ بغتة على حراك والدي وقد عاد من العمل قبل الأوان. كانت عيناه تقدحان دمًا ورائحة الخمر تعربد في فمه. نظرتُ إليه مذعورًا وهو يتحسّس المصباح العاري، المعلّق بالحبل.

- أنّه ساخن.

ركّز أنظاره إليّ وضرب الجدار بالمصباح بعنفٍ. فانفجر إلى ألف شظيّة زجاجيّة انهالت على وجهي، ولم أجرؤ أنّ أزيلها عني.

- أين هو؟- سأل أبي بصوت فاتر وهادئ.

هززتُ رأسي وأنا أرتجف.

- أين الكتاب القميء؟

هززتُ رأسي مجددًا. تلقُّيت لكمةً لم أنتبه إليها بسبب الظلام. شعرتُ
أنّ الضباب يكدّر رؤيتي وأنّي أسقط عن السرير، وفمي ينزف دمًا، بينما تحترق شفتيّ بألم حادٍّ كالنار البيضاء. وحين أدرتُ رأسي رأيتُ ما بدا لي سنيّن مكسورين على الأرض. أمسك والدي رقبتي ورفعني.

- أين هو؟

- أرجوك يا أبي...

وبكلّ ما أوتي من عزم، رمى وجهي إلى الجدار، فأفقدتني الضربة توازني لأتهاوى ككيس من العظام. جرجرتُ نفسي إلى زاوية ما، وبقيتُ هناك أرتجف وأنظر إليه يفتح الخزانة ويعبث بأغراضي القليلة ويرميها أرضًا. أخذ يفتّش في الأدراج والصناديق دون أنّ يعثر على الكتاب حتّى عاد لينشغل بي مستاءً. أغمضتُ عينيّ واستندتُ إلى الجدار بانتظار لكمات أخرى لم تصل أبدًا. فتحتُ عينيّ لأراه جالسًا على السرير، يبكي ويكاد يختنق ندمًا. وحين رآني أنظر إليه، هرع إلى السلالم. سمعتُ صدى خطواته يبتعد في سكون الفجر، وحين تأكّدت من أنّه بات بعيدًا جرجرتُ نفسي إلى السرير وأخرجتُ الكتاب من مخبئه تحت الفراش. ارتديتُ ثيابي وخرجتُ متأبطًا الرواية.

كان زقاق سانتا آنا مستلقيًا تحت ضبابٍ خفيف حين وصلتُ إلى مدخل المكتبة. بائع الكتب وابنه يسكنان في الطابق الأول من البناية نفسها. كنت أعرفُ أنّ طرق أبواب الناس في السادسة صباحًا

ليس لائقاً، لكنّ هاجسي الوحيد في تلك اللحظة تمثّل في إنقاذ الكتاب.

كنت متأكدًا من أنّ والدي سيمزّقه، بكلّ الغضب الذي يسري في عروقه، لو عاد إلى المنزل ووجده. قرعتُ الجرس وانتظرتُ. قرعتُ مرتّين وثلاث بإلحاحٍ حتى رأيتُ نافذة الشرفة تُفتح ليظهر منها سيمبيري
العجوز بلباس النوم، ينظر إليّ مشدوهًا. بعد دقيقة نزل ليفتح لي، وما أنّ رأى وجهي تلاشت كلّ مآخذه. وقف أمامي وأسندني بذراعيه.

- يا إلهي. هل أنت بخير؟ من فعل بك هذا؟

-لا أحد. لقد وقعتُ.

أعطيته الكتاب.

-لقد أتيتُ لإعادته، لا أريد أنّ يحصل له مكروه...

نظر إليّ سيمبيري دون أنّ يتكلم. أمسك ذراعي وحملني إلى بيته.

كان ابنه الشابّ، في الثانية عشرة من عمره، خجولاً ولا أذكر أنّي سمعت صوته من قبل. استيقظ حين سمع والده يخرج، وكان ينتظر عند المستراح. حين رأى الدماء على وجهي، نظر إلى أبيه مذعورًا.

- اتصل بالطبيب كامبوس!

استجاب الفتى وهرع إلى الهاتف. سمعته يتكلّم ففهمتُ أنّه لم يكن أخرس. ساعداني في الاستلقاء على الأريكة، في صالة الطعام، وعقّما جراحي ريثما يصل الطبيب.

- هلا قلت لي مَن فعل بك هذا؟

لم أفتح فمي. لم يكن سيمبيري يعرف أين أسكن، ولم أرغب أنّ تخطر في باله أفكار معيّنة.

- هل والدك من أذاك؟

أزحتُ أنظاري.

- لا. لقد وقعتُ.

وصل الطبيب كامبوس خلال خمس دقائق، إذ كان يسكن على بعد أربع أو خمس بنايات من هناك. فحصني من رأسي إلى أخمص قدميّ،
وهو يتلمّس الجروح ويعتني بها. كان من الواضح أنّ عينيه تشتعلان امتعاضًا، لكنّه لم يقل شيئًا.

- لا توجد كسور، لكنّ بعض الكدمات ستوجعك لمدّة أيام. لا بدّ أنّ نقتلع هذين السنيّن. لقد تحطّما وقد يسبّبان الالتهاب.

حين انصرف الطبيب، حضّر لي سيمبيري كأساً من الحليب الفاتر بالكاكاو ورمقني مبتسمًا وأنا أشرب.

- كلّ هذا لإنقاذ «آمال عظيمة»، أليس كذلك؟

عبُّرت عن عدم اكتراثي. تبادل الأب والابن ابتسامة ماكرة.

- في المرّة القادمة، إذا كُتب عليك حقًا إنقاذُ كتاب ما، لا تجازفْ بحياتك. عدني بذلك لآخذك إلى مكان سرّيّ حيث لا تموت الكتب ولا يستطيع أحدٌ تمزيقها.

نظرت إليهما مستغربًا.

- وأيّ مكانٍ هو؟

غمز سيمبيري بعينه وأحاطني بابتسامته الغامضة التي بدت مسروقة من إحدى روايات ألكسندر دوما المسلسلة، وكان يشاع أنّها من إحدى سمات العائلة.

- لكلّ أمرٍ أوانه يا صديقي. لكلّ أمرٍ أوانه.

قضّى والدي طوال ذلك الأسبوع مطأطئ الرأس، ينهشه الندم.

اشترى مصباحًا جديدًا وفوجئتُ به يسمح لي بإضاءته، ولكن ليس لوقت طويل فالكهرباء كانت مكلفة. طاوعته لأنّي كنت أفضّل عدم اللعب بالنار. وفي يوم السبت، أراد أنّ يشتري لي كتابًا؛ فذهب إلى مكتبة ما، أوّل وآخر مكتبة دخل إليها، في شارع دي لا بالا، قبالة
الأسوار الرومانيّة القديمة. لكنّه لم يستطع قراءة العناوين على أضلاع مئات الكتب المعروضة هناك، فخرج بيدين فارغتين. ثمّ أعطاني نقودًا، أكثر من المعتاد، وقال لي أنّ أشتري ما أريد. بدت لي اللحظة مناسِبة لأناقشه في موضوعٍ كنت أنتظر أوانه منذ زمن.

-شدّدت عليّ السيّدة ماريانا، المعلمة، أنّ أطلب منك المجي إلى المدرسة كي تتكلّم معها أنّ استطعت- ارتجلتُ.

- عمّ نتكلم؟ ما الذي فعلتَه؟

- لا شيء يا أبي... أرادت أنّ تتكلّم معك بشأن مستقبلي الدراسيّ.

إنّها تقول إنّي أحظى بمؤهِّلات جيّدة وقد تساعدني بنفسها في الحصول على منحة دراسية كي أدخل إلى الإسكولابي...

- ومن تظن هذه المرأة نفسها كي تملأ رأسك بالهراء، وتقول إنّها ستدخلك إلى مدرسة داخليّة مخصّصة لأبناء الأكابر؟ هل تعلم أنت رداءة هذا النوع من البشر؟ هل تعلم كيف سينظرون إليك، وكيف سيعاملونك، حين يعرفون أصلك؟

أخفضتُ أنظاري.

- السيّدة ماريانا تريد أنّ تساعدني وحسب يا أبي. هذا كلّ ما في الأمر. لا تقلق. سأقول لها أنّ هذا مستحيل وكفى.

نظر إليّ والدي متجهِّما، لكنّه ضبط أعصابه وتنهّد عميقًا بعينين مغمضتين قبل أنّ يقول:

- سنفعلها. أتفهمني؟ أنا وأنت. بهامةٍ مرفوعة. ودون استجداء صَدَقةٍ من أولاد العاهرات.

- أجل يا أبي.

ربّت على كتفي ونظر إليّ فخورًا بي لحظة وجيزة لم تتكرّر أبدًا. كان فخورًا بي رغم أننا مختلفان تمامًا، فأنا أحبّ الكتب بينما يعجز هو عن القراءة. في تلك اللحظة، شعرتُ أنّ والدي أطيب رجل في العالم، ولو ابتسمت الحياة في وجهه، وحالفه الحظّ مرّة واحدة، لبدا كذلك في رأي الآخرين أيضًا.

- الشرور التي يرتكبها المرء لا تتلاشى يا دا□يد. بل تعود عليه. وأنا ارتكبتُ الكثير من الشرور. الكثير. لكنّي دفعتُ الثمن. ومصيرنا سيتغيّر.

سترى. سترى.

ورغم إلحاح السيّدة ماريانا، التي كانت أشدّ مكرًا من الجوع ما جعلها تفهم كيف آلت الأمور، لم أعد أتحدّث مع والدي عن مستقبلي الدراسيّ. وحين فهمت المعلّمة أنّه ما من آمال يعوّل عليها، قالت لي إنها ستكرّس لي ساعة إضافية، كل يوم بعد انتهاء الدوام، لتحدّثني عن الكتب والتاريخ، وكلّ تلك الأمور التي تبثّ الرعب في قلب والدي.

-سيكون سرًّا بيننا- قالت المعلّمة.

كنت أعلم، رغم صغر سنّي أنّ والدي يخجل من أنّ يراه الناس جاهلاً، مجرّد جنديّ عائد من الحرب التي تشبه كلّ الحروب الأخرى، تندلع باسم الله والوطن لتنتهي بتكريس سطوة مَنْ حرّضها ليس إلاّ. في تلك الآونة، كنت أصطحب والدي إلى عمله في بعض الليالي. كنا نستقلّ الترام في شارع ترافالغار ليتركنا عند أبواب المقبرة. وكنت أبقى في مكان الحراسة، أقرأ أعدادًا قديمة من الجريدة، وفي بعض الأحيان أحاول التكلّم إليه. وهذا ما كان أمرًا بالغ الصعوبة، فوالدي لم يعد يتحدّث عن الحرب، ولا عن المستعمرات، ولا عن المرأة التي هجرته.

ذات مّرة. سألتُه لماذا هجرتْنا أمّي. كنت أظنّ أنّي السبب، لأنّي ارتكبت خطأ ما، أو ربّما لأنّي ولدتُ فقط.

- أمّك تخلّت عنّي قبل أنّ يرسلوني إلى الجبهة. لقد كنت غبيًا ولم أنتبه إلى الأمر إلا حين عدت.

الحياة هكذا يا دا□يد. عاجلًا أم آجلًا سيتخلّى عنك الجميع، وستخسر كلّ شيء.

- أنا لن أتخلّى عنك أبدًا يا أبي.

بدا لي أنّه يوشك على البكاء فعانقته كي لا أنظر إلى وجهه.

في اليوم التالي، دون طلبٍ منّي، أخذني إلى محلات النسيج «إل إنديو» في شارع كارمن. لم ندخل، لكنّه أشار إلى امرأة شابّة وباسمةٍ تخدم الزبائن وتعرض عليهم المنسوجات والأقمشة الثمينة، من خلف الواجهة.

- تلك هي أمّك يا دا□يد -قال لي- يومًا ما، أخاله قريبًا سأعود إلى هنا لأقتلها.

- لا تقل هكذا يا والدي.

نظر إليّ بعينين محمرّتين وفهمتُ أنّه كان ما يزال يحبّها. شعرتُ بأنّي لن أغفر لها أبدًا. أذكر أنّي نظرتُ إليها خلسة، دون أنّ تنتبه لوجودنا، وعرفتها بفضل الصورة التي كان والدي يحتفظ بها في أحد الصناديق في المنزل، بجانب مسدّس الجيش. كان يُخرج المسدّس كلّ ليلة، ظنًّا منه أنّي نائم، ويتأمله كأنّه يبوح بكلّ الأجوبة، تلك الأجوبة التي كان في حاجة إليها، على الأقلّ.

وكم عدتُ طوال الأعوام اللاحقة إلى أبواب ذلك المحلّ كي أختلس النظر إليها. لم تكن لديّ الشجاعة الكافية للدخول، أو التكلّم معها حين تخرج وتبتعد باتجاه الرامبلا نحو حياةٍ لا أعرفها، مع عائلة تجعلها سعيدة، وابن يستحقّ حنانها ولمساتها أكثر منّي. لم يعرف أبي أبدًا أنّي كنت أذهب لرؤيتها أحيانًا، أو أنّي كنت أتبعها -في أحيانٍ أخرى-
وأمشي بجانبها حتى أكاد أمسك يدها قبل أنّ تغيّر طريقها في اللحظة الأخيرة. في عالمي، كانت الآمال العظيمة لا تعيش سوى في صفحات الكتب.

لم يتغيّر مصيرنا، كما تطلّع والدي كثيرًا. بل أنّ الخدمة الوحيدة التي قدّمتها له الحياة هي أنّها لم تجعله ينتظر طويلًا. ذات ليلة، بينما كنا نصل إلى أبواب الجريدة للعمل، ظهر ثلاثة مسلحون بالمسدّسات من الظلام وأطلقوا عليه النار أمام عينيّ. ما زلت أذكر وميض الدخان ورائحة البارود تنبعث من سترته المثقوبة بالرصاص. كان أحد المسلّحين يحضّر نفسه لإطلاق رصاصة الرحمة حين ارتميتُ على والدي، فأوقفه المجرم الآخر. أذكر عينَي المسلّح كيف كانتا تركّزان النظر في عينيّ، بينما يتساءل أنّ كان واجبًا عليه أنّ يقتلني أيضًا. ثم ابتعدوا فجأة بخطوات رشيقة، واختفوا في الأزقّة الضيقة بين بنايات البوبيلو نويفو.

في تلك الليلة، ترك القتلة والدي ينزف بين ذراعيّ، وتركوني وحيدًا في هذا العالم. نمتُ قرابة الأسبوعين في مطبعة الصحيفة، مختبئًا بين آلات اللينوتيب التي تبدو عناكب فولاذية عملاقة، محاولًا أنّ أكبت ذلك الهمس اليائس الذي يخترق أذنيّ عند الغروب. وحين وجدوني، كانت يداي وثيابي ما تزال ملطخة بالدماء المتخثّرة. وفي البدء لم يعرف أحد من أكون، لأنّي لم أتكلّم طوال أسبوع. وحين فعلتُها صرختُ باسم والدي حتى بحّ صوتي. وعندما سألوني عن أمي، قلتُ إنّها كانت ميّتة ولم يكن لديّ أحد في الدنيا. وصلت قصّتي إلىِ مسامع پيدرو □يذال، نجم الصحيفة